جذور ومآلات (مصائر) الحضارة الغربية

جذور الحضارة الغربية والعوامل التي أثرت في مفهومها للتغيير :

– هناك عوامل أثرت في رؤية الحضارة الغربية وتصوراتها لعملية التغيير وفلسفتها بمعنى أنها عوامل رسمت ملامح وفلسفة التغيير في العقل الجمعي الغربي قديما وحديثا.

– عوامل ساهمت في رسم فلسفة ومفهوم التغيير في العقل الغربي، مع ملاحظة أن أمريكا جزء من هذه الحضارة الغربية وإن اختلفت عن أوروبا في التاريخ والجغرافيا قليلا أو كثيرا، إلا أن الذين عمروها وهاجروا إليها هم الأوروبيون في غالبهم ومن ثم فقد اصطحبوا معهم هذه الثقافات.

هذه العوامل هي مكونات وروافد ثقافية من التاريخ والجغرافيا:

١ – **جغرافيا** : وتتمثل في العوامل الجغرافية التى تحكم أغلب القارة الأوروبية من (ثلوج – عواصف – فيضانات– براكين)، وكثير من صور قسوة الطبيعة ولدت ثقافة الصراع والعنف ولا شك .

٢ – **تاريخ:**

أ– **قديما...**

– همجية الفايكنج غزاة الشمال الأوروبي، وهم قبائل تتميز بالعنف

والهمجية وغاراتهم المستمرة على أطراف الإمبراطورية الرومانية.

مثال: حرق الفايكنج لندن وباريس عدة مرات ما بين القرنين (١٠-١١) الميلاديين .. وكان لمثل هذه الأمور دورها ولا شك في ميلاد ثقافة الصراع والعنف .

- الحياة البدائية.. حياة الأكواخ والبراري والغابات مع الخرافات والأساطير.. والتي ساهمت في تشكيل العقلية الغربية قبل وبعد دخولها في المسيحية.. نعم فهذه الشعوب لم تتخل عن فكرة الأساطير، حتى بعد تحولها من شعوب وثنية إلى دين سماوي كالمسيحية .

- **مثال من ثقافة الخرافات والأساطير قبل المسيحية:** فكرة شهر العسل حين كان الفايكنج يعتبرون أن تناول مشروب معين يدخل العسل في تركيبه يقوي الزوجين ويمنحهما الحيوية والدفء والنشاط.

- ومن بعد المسيحية التشاؤم من الرقم ١٣ حتى يومنا هذا، حتى إن الفنادق تلغي رقم ١٣ من الأدوار والغرف وترقم هكذا: ١٢- ١٢مكرر- ١٤، كذا في أمريكا وأوروبا.

- ومصدر هذا الاعتقاد أن المسيح ليلة صلب (في اعتقادهم) والتقى في عشائه الأخير مع تلاميذه الاثنى عشر (فكانوا بذلك ١٣) ومن ثم ساد الاعتقاد بأنه إذا اجتمع ثلاثة عشر رجلا فإن أحدهم يموت!!

– ومؤخرا ذكرت الصحف أن حملة أطلقت في إحدى الولايات الأمريكية للقضاء على رمز الشؤم وهو البوم .. وبالفعل تم القضاء على كل البوم في الولاية ...الأمر الذي ترتب عليه الانتشار المخيف للفئران.

– فلكم كانت حكمة الإسلام بالغة في النهي عن التشاؤم، مع التشديد على ذلك حين يترتب عليه إلغاء عمل أو مشروع أقدم عليه صاحبه. قال ﷺ: «ليس منا من تكهن أو استقسم أو رجع من سفر تطيرا» (البزار والطبراني).

ب– **حديثا**.. ظهرت عدة نظريات في جوانب الحياة المختلفة وانتشرت في أوروبا في القرن ١٩ .. كلها تكرس ثقافة ومفهوم الصراع وتعتمده وسيلة للتغيير.

– والملاحظ عليها (النظريات) أن أصحابها والقائلين بها كانوا يهودا، الأمر الذي يعكس دور الفكر اليهودي في ثقافة الصراع وكرافد من روافده، خاصة في الجانب التاريخي الحديث.

– **وأخيرا**.. فإن هؤلاء كان القاسم المشترك فيهم عدا يهوديتهم أنهم لم يعرف عنهم قبل مناداتهم بهذه النظريات أي بزوغ علمي، بل إن القاسم المشترك في سيرتهم ونشأتهم جميعا كان هو الفشل.

هذه النظريات هي:

١- صراع الكائنات سعيا نحو التطور: ت. داروين، وهو إنجليزي يهودي.

٢- صراع المصالح الاقتصادية مع القيم والأخلاق بحيث يتحرر الاقتصاد كعلم مستقل عن ضوابط الأخلاق: آدم سميث، وهو إنجليزي يهودي.

٣- صراع الغرائز مع القيم الدينية : س.فرويد، وهو نمساوي يهودي.

٤- الصراع بين البروليتاريا من جهة مع الإقطاع والرأسمالية من جهة أخرى: كارل ماركس، وهو ألماني يهودي.

٥- (مصير الحضارة الغربية) كما يراه العلماء والمفكرون الغربيون .

- تروجانوسكى (روسى): إن الثورتين الفرنسية والشيوعية قد فشلتا.. وإن العالم بحاجة إلى ثورة قادرة على تصحيح مسار الإنسانية.. وهذه الثورة لن تأتي إلا من العالم الإسلامي.

أرنولد توينبي - شبنجلر - أليستركوك : يتنبئون بقرب انهيار الحضارة الغربية، ودللوا على ذلك بأمور :

١- سرعة الانهيار الأخلاقي.

٢- عدم تمكن القانون والمحاكم من وقف هذا الانحدار السريع .

– بيتريم سوركين (عالم اجتماع أمريكي وأستاذ بهارفارد): «إن أمريكا تسير مسرعة نحو كارثة، فهي تسير في نفس الاتجاه الذي أدى إلى انهيار الحضارتين الإغريقية والرومانية (يقصد الانهيار الأخلاقي)».

٣- جون كينيدي سنة١٩٦٢ : «إن مستقبل أمريكا في خطر لأن شبابها مائع – منحل – غارق في الشهوات – ولا يريد تحمل المسئولية. ومن بين كل ٧ يتقدمون للتجنيد هناك ٦ فقط صالحون» .

٤- المؤرخ البريطاني بول كيندي: «إن أمريكا في حالة انهيار ولم تعد قادرة على فعل شيء للحفاظ على كيانها، وبين لحظة وأخرى ستأتي الكارثة» .

– وبريطانيا بلد بول كينيدي ليست أحسن حالا بكثير.

يدعم الشهادات السابقة بعض الإحصائيات عن أمريكا:

– ٧ مليار دولار تنفق سنويا لإطعام وعلاج الكلاب.

– ربع أطفال أمريكا يعيشون تحت خط الفقر.

– ١٠ مليون مصابون بالإيدز.

– كل عام تحمل (تحبل) أكثر من مليون فتاة أمريكية، ٨٠٪ منهن يحملن سفاحا.

– ١٣مليون طفل بدون آباء.

- في الجيش الأمريكي ٢٠٠.٠٠٠ شاذ جنسيا.

- الكنيسة البروتستانتية الأمريكية تبارك زواج الشواذ، «كنيسة كاونتربري البريطانية تفعل الشيء نفسه» .

- القسس والكرادلة انتشرت بينهم العلاقات الجنسية الشاذة .

- جريمة كل ٥ ثوان (قتل أو سرقة، أو قتل مع سرقة، أو اغتصاب) .

- في بعض المدن لا يخرج الناس بعد الغروب خوفا على أنفسهم.

* * *

عوامل قيام وسقوط الحضارات

١- أعمار الأمم:

- وهو قانون صاغه ودلل عليه ابن خلدون في المقدمة : «إن للأمم أعمارا كأعمار الناس، تبلغ ذروتها مع الجيل الرابع ما شاء الله لها أن تبقى، ثم تبدأ في الانحدار».

٢- الأخلاق:

- هي آفة كل حضارة ، والسوس الذي ينخر في قواعدها ويقوض بنيانها.

- وهي قاسم مشترك وقانون لا يتبدل في كل الحضارات التي عرفها التاريخ.

- وأول هذه الأخلاق وأخطرها العدل.. بحيث إن انتشار الظلم يعني نهاية هذه الحضارات.

- وقد جعل ابن خلدون عنوان فصل كامل في المقدمة «فصل في أن الظلم مؤذن بخراب العمران» قال: «اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يعلمونه من أن مصيرها ومآلها هو انتهابها من أيديهم فإذا كان ذلك كسد العمران وبارت الأسواق وابذعر (تفرق) الناس في الأمصار » .

- وإن السبب القوي الذي يمسك الحضارة الغربية أن تزول وتسقط إلى الآن رغم انحلالها واجتماع الكثير من عوامل سقوطها هو أن أهلها في أغلبهم لا يتظالمون بينهم ولا يستعبد بعضهم رقاب بعض، فلا زال العدل سائدا داخل حدود أوطانهم بدرجة كبيرة.

- **ومجمل القول في عنصر الأخلاق** أن الله يسلط على الأمم التي يشيع فيها فساد الأخلاق أمما ربما كانت شرا منها وهذه من سنن التدافع فتكون سببا في هلاكها ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة]، **وشواهد التاريخ على ذلك كثيرة منها:**

أ- كان اليهود في وقت من الأوقات أتباع الحق وحملة الرسالات.. ولكنهم عندما قصروا وغرقوا في الآثام عاقبهم الله بنبوخذ نصر البابلى الوثنى (٥٨٦ ق.م.) فسامهم سوء العذاب .. وأباد وأسر وعذب منهم ستين ألفا.

ب- بعث عمر بن الخطاب برسالة إلى عمرو بن العاص إبان فتح مصر جاء فيها: إن الفتح قد أبطأ بكم وما أظن ذلك إلا لذنوب أحدثتموها....

ثم أوصاه ومن معه بتقوى الله وقال له:

إنكم لا تنصرون على عدوكم بكثرة عدد ولا عدة ولكنكم

تنصرون عليهم بطاعتكم لله ومعصيتهم له.. فإن عصيتموه ساويتموهم في المعصية وكاثروكم في العدد والعدة .

ج- رسالة مشابهة من عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بن الجراح واليه على الشام **جاء فيها:**

إياكم وإغضاب الله، ولا تقل إن عدونا شر منا (كافر) فلن يسلطه الله علينا.. فرب قوم سلط عليهم شر منهم.

* إن مقولة: «رب قوم سلط عليهم شر منهم» التي ذهبت مثلا في حركة التاريخ والاجتماع هي قانون من قوانين النصر والهزيمة وقيام الحضارات وسقوطها.. كما أنها وثيقة الارتباط بسنة التدافع .

د- يتجلى قانون «رب قوم سلط عليهم شر منهم » ومعه سنة التدافع.. يتجليان أشد ما يكون وضوحا في ملحمة الصراع الإسلامي- الصهيوني المسيحي...

- فقد سلط الله علينا أحفاد القردة والخنازير وحلفاءهم البيض .

- فهم قدر الله فينا بتقصيرنا وتخاذلنا وتضييعنا لمعالم الحق....

- وسيظل هذا القانون وتلك السنة ماضيين فينا حتى نفيق ونثوب فتنطبق علينا قوانين الصعود.

٣- الامتداد الزمني والانبعاث الحضاري (عامل خاص بالحضارة الإسلامية):

- ضربت الحضارة الإسلامية الرقم القياسي في امتدادها الزمني على رقعة التاريخ... إذ بلغ مجموع حقبها - باستثناء فترات السقوط والتعثر- حوالي عشرة قرون متصلة.

وهناك ملاحظتان على هذا العامل:

أ- كل الحضارات التي قامت على مر التاريخ وازدهرت حينا من الزمان ثم سقطت فتلاشت ولم تقم لها قائمة بعد ذلك إلا الحضارة الإسلامية، وذلك لمرونتها وامتلاكها خاصية استئناف الحضارة (الانبعاث الحضاري).. فهي حضارة مرضت وذبلت عدة مرات لكنها لم تمت بل كانت تنتعش وتستأنف انبعاثها الحضاري، وهي خاصية وثيقة الصلة بحديث البخاري: «يبعث الله على رأس كل مائة عام ...»

- والملاحظ أن التجديد يكون على يد أشخاص: عمر بن عبد العزيز على رأس المائة الأولى، الشافعي على رأس المائة الثانية، الغزالي -ابن تيمية- العز ابن عبد السلام (رجال) يتبعه تجديد على مستوى الدول...

فأول دولة قامت هى دولة الرسول ﷺ في المدينة – ثم دولة الخلفاء الراشدين – ثم الدولة الأموية الأولى – ثم دولة الزبيرين – ثم الأموية الثانية– والعباسية بأطوارها الأربعة وقد جدد شبابها في أطوارها الأخيرة السلاجقة – ثم سقطت على يد التتار وقد تجدد شبابها جزئيا على يد الدولة الأيوبية والمملوكية – ثم كان التجديد الأكبر على يد الدولة العثمانية.

كما كانت هناك الدولة الأموية في الأندلس وقد تجدد شبابها على يد المرابطين والموحدين – ودولة المغول في الهند حتى أن الإنجليز حين دخلوا الهند لم يجدوا من يتصدى لهم غير هؤلاء.

كل دولة تحمل راية الحضارة لتسلمها إلى الدولة التى تليها (على ما كان بينها أحيانا من تناحر سياسى) ولكن كلما سقطت دولة قامت الأخرى على نفس ركيزتها المعنوية والثقافية لتكمل مسيرة الحضارة.

– ومن موافقات القدر العجيبة أن عثمان أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية قد ولد (٦٥٦هـ) وهي نفس السنة التي سقطت فيها بغداد على يد التتار وكأنها إشارة قدرية إلى حيوية هذا الدين وتجدده ومرونته وقابليته للانبعاث الحضاري من جديد رغم فداحة الخطوب وحجم المؤامرات.

ب– إن الغالب اليوم هو ظهور أفراد مجددين؛ إذ ليس للإسلام دولة بعد، لكن يظهر الله رجالا مجددين مثل حسن البنا يعيدون تفهيم

الناس الإسلام الحق ويربون الرجال القادرين بعد ذلك على صنع الدولة النواة .

– فظهور مجددين من أمثال حسن البنا يعتبر ظاهرة حضارية منضبطة بحركة التاريخ وقوانينه الحاكمة .

– قد تقوم حضارة مثل الحضارة الصينية الجديدة الآن دون أن يعد ذلك نوعا من الانبعاث الحضاري، وذلك لأن الحضارتين الصينية القديمة والحديثة قامت كل منهما على ركائز معنوية وأدبية مختلفة في الفكر والثقافة والمعتقد الديني...

– وإلا لاعتبرنا الحضارة التي قامت في مصر الإسلامية ومصر الفرعونية شيئا واحدا لاتحاد عامل الشعب أو الأرض.

– حتى الحضارات التي قامت في مصر الفرعونية لا نستطيع أن نعتبرها بأسرها المختلفة شيئا واحدا؛ إذ كان لكل منها معبودها ومعتقداتها وثقافاتها، ولا يجمع بينها غير وثنيتها وعبادتها غير الله.

٤- التفوق العددي:

– الحضارات التي خاضت معارك وحروبا وصراعات فيما بينها كان بعضها أكثر عددا من بعض.

– ولا شك أن للعدد تأثيره بدليل قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنفال] . يعني حدد لنا النسبة التي يجب الصمود والثبات لها، ثم عاد سبحانه فنسخ ذلك تخفيفا .. ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنفال] .

– لكن العجيب أن أغلب أيام المسلمين المجيدة ومواقفهم المشهودة كانوا فيها قلة ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة].

– بل الأعجب أن الهزيمة كانت من نصيبهم أحيانا حين كانوا كثرة لإعجابهم بكثرتهم مثل يوم حنين: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ [التوبة:٢٥].

– وأحيانا كانوا أقل عددا ثم هزموا ولكن ليس بسبب قلتهم وإنما بسبب لهفتهم على الغنيمة، مثل أحد وبلاط الشهداء.

٥- التفوق العسكري (العددي):

– للتفوق العسكري دوره الحاسم في المعارك والصراع الحضاري .

– ولكن الحضارة الإسلامية لها خصوصيتها أيضا في هذا المجال كخصوصيتها في مسألة الامتداد الزمني والانبعاث الحضاري...

- هذه الخصوصية تتمثل في أن التفوق العسكري مدد إلهي ومكافأة سماوية يكافئ الله بها المقاتلين في سبيله، والمنصاعين لأمره، الصابرين على لأواء الحرب ومرارة الصراع... أكثر منه عنصر حسم بذاته.. وذلك على فرض بذل الوسع واستكمال الجهد في سائر الجوانب.

مثال: رجل بعث خادمه أو ولده في مهمة ليقضي له طلبا في يوم حار.. ولم يعطه دابة ولا سيارة، فامتثل الأمر طائعا صابرا مستعينا بالله، فلما رأى منه أبوه (أو سيده) ذلك كافأه على طاعته وصبره بأن أعطاه دابة أو سيارة فكانت مكافأة أكثر منها وسيلة إنجاز؛ ذلك لأنه امتثل قبلها .

الأمثلة التاريخية كثيرة:

أ- سلاح المياه – سلاح الملائكة في معركة بدر .

ب- سلاح حفر الخندق – سلاح حيلة نعيم بن مسعود – سلاح الريح (في معركة الخندق).

ج- سلاح كرات النار الحارقة التي ابتكرها المقدسي الكيميائي لحرق الدبابات (الأبراج الحديدية) التي دوخت المسلمين في الحروب الصليبية حيث كانت تدك الحصون وتنقبها وتفتح الطريق للتسلل عبرها.

د- سلاح الحيلة العجيبة في فتح القسطنطينية التي آتاها الله وفهمها محمدا الفاتح.

- وقد تمثل هذا السلاح في فكرة تحريك السفن على البر وفوق الجبال على الألواح الخشبية المغطاة بالشحم والزيت مسافة ثلاثة أميال كي تتخطى السلاسل الحديدية العملاقة في بحر مرمرة.

- شهد المؤرخ البيزنطي (يلماز أوزنتونا) : «كانت هذه هي المرة الوحيدة في التاريخ التي سارت فيها السفن فوق البر وعلى الجبال بدلا من البحار .. ولقد فاق محمد الثاني الإسكندر الأكبر».

هـ- من الأحداث العجيبة التي وقعت في أفغانستان إبان الغزو الروسي، والتي شهد عليها الجنود الروس بأنفسهم وسجلها د. عبد الله عزام رحمه الله في كتابه (**آيات الرحمن في جهاد الأفغان**):

- أنه عندما كان الروس يشرعون في ضرب مواقع المجاهدين بالطائرات كانت تحلق أسراب من الطيور وتغطي السماء حتى تجعل الطيران مستحيلا.

- **والآن نتساءل** : هل إذا امتلكت الأمة المهزومة روحيا ومعنويا سلاحا متطورا من شأنه أن يقلب موازين الصراع.. هل يمكن لها حينذاك أن تنتصر؟!

الجواب يتضح من خلال القصة التالية:

- استطاع أحد مسلمي الأندلس أواخر أيامهم بها «واسمه أبو بكر العجام» أن يتوصل إلى تركيبة البارود الذي استعمل بعد ذلك من خلال البنادق والمدافع بدلا من كرات النار التي كانت تقذفها المجانيق.

- وكان سلاحا ولا شك من شأنه أن يغير نتيجة المعركة لصالحهم.. فهل حدث هذا فعلا؟ .. لا لم يحدث .

- لقد كان المسلمون يعانون سقوطا حضاريا مروعا في القيم والمثل والأخلاق والهمم.. سقوطا لم يمهلهم حتى يستفيدوا من هذا السلاح الفتاك..ثم لم تلبث غرناطة آخر مواقعهم أن سقطت.

- وهذا يؤكد الحقيقة الآنفة من أن التفوق العسكري هو مدد إلهي ومكافأة سماوية للمسلمين على تمسكهم بدينهم وانصياعهم لأمر الله وصبرهم على لأواء الحرب ومرارة الصراع أكثر منه عنصر حسم بذاته.

مثال على ذلك: لو أن رجلا نائما في بيته يضع تحت وسادته مدفعا رشاشا.. ثم تسلل إلى بيته لص لا يحمل أي سلاح أو لعله يحمل مدية على الأكثر.

– لو أن صاحبنا هذا الذي يمتلك المدفع كان جبانا تافها لدرجة أنه كان يبول على نفسه، وكانت أسنانه تصطك ببعضها، ويداه ترتعشان، وجسده كله ينتفض، هل مثل هذا سيتذكر مسألة المدفع؟

ولو تذكره فهل يقوى على حمله فضلا عن استعماله؟!

– فهذا حال أمة منهارة بكل المعاني، فلا يجديها حينئذ أي سلاح قبل انصلاحها روحيا ومعنويا.

٦- عوامل الصعود:

– كما أن لسنة التدافع دورها في سقوط الأمم فإن لها ولا شك الدور نفسه في الصعود.. ذلك لأن حركة التاريخ تعتمد على التوازن، فسقوط حضارة يعني في نفس الوقت قيام أخرى.

– ليست العبرة في عملية الصعود بحجم الكارثة (التي تعيشها الأمة) ولا عمق المأساة أو مرارة الجراح .

لكن العبرة تكمن في الإجابة على تلك التساؤلات:

١ – هل الأمة مازالت تمتلك مقومات الصعود؟!

٢ – هل الأمة قادرة على أن تسترد عافيتها؟!

٣– هل الأمة قادرة –اليوم أو غدا– على السير في طريق التعافي وحمل تبعاته؟! .. من همة عالية واستعداد للبذل والتضحية.

التغيير من خلال مفهوم الدولة المدنية في الحضارة الإسلامية

مفهوم الدولة المدنية في الإسلام:

١- لا عصمة لأحد بعد النبي ﷺ .. وعليه:

أ - فإن كل أحد (مهما كان) يؤخذ من قوله ويرد عداه ﷺ .

ب- وحتى أقواله ﷺ وكلام ربه عز وجل قد يختلف في دلالتها، غير أن أحدا بعينه لا يملك احتكار النص الديني (تأويلا وتنفيذا).

ج - ليس في الإسلام: إكليروس (طبقة رجال الدين)، ولا ثيوقراطية بمعنى الدولة الدينية التي تلزم الناس بالأحكام التي تراها على طريقة الأنظمة الفاشية الجبرية، ولكن في الإسلام علماء لهم احترامهم ويستعان بهم على الاقتراب من الحقائق الدينية.

٢- العلماء / أو الأئمة/ أو الحكام/ أو أي أحد أيا كان ليس لهم أدنى خصوصية في:

أ - تقرير العقائد.

ب- تحرير الأحكام.

ج – ممارسة أعمال السياسة (كالعزل والتولية) خلافا لإرادة شعبية حرة.

- والشواهد على ذلك كثيرة .. منها:

أ– أن النص الدينى مهما بلغت قداسته كالقرآن، وكله قطعي الثبوت (مقطوع بصحة نسبته إلى الله ﷻ)، قد تكون دلالته ظنية:

ومن ثم يملك كل عالم حقا متساويا في الاجتهاد في فهمه – أما اختيار الأصلح لواقع المجموع فإن ذلك يتم بنفس الآلية التي يتم بها اتخاذ القرار في الأمور الدنيوية البحتة وهي الشورى .

ب– النبى ﷺ كان أوسع الناس مشورة لأصحابه إذا كان الأمر لا يتعلق بأحكام الدين وثوابته.

– بل كان كثيرا ما ينزل عن رأيه لآرائهم، **والأمثلة كثيرة:** (قوله ﷺ : الدين النصيحة –ثلاثا– لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم). رواه مسلم. فيما يسمى بتعريف الكل بأهم الأجزاء، كقوله: (الحج عرفة) لأنه أهم ركن فيها.. فكأنه ﷺ يريد أن يقول أن النصيحة والمشورة أهم شيء في الدين، وكذلك أخذه بمشورة جندي مغمور (وهو الحباب من المنذر) في بدر– ومشورة الصحابة في أحد بالخروج لملاقاة العدو ـ ومشورة السعدين: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة في غزوة الخندق، ومشورة عمر في الحديبية، حين أشار عليه بإرسال من هو أفضل منه لمفاوضة قريش وهو عثمان.

ج – أبو بكر أول خليفة لرسول الله ﷺ، كان أول تصريح له بعد تولى الحكم هو:«وليت عليكم ولست بخيركم – إن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، وإلا فلا طاعة لي عليكم ».

فبالله عليكم هل دولة يقبل رئيسها النقد والتوجيه هي دولة جبرية؟!

د – عمر الذي اتسع صدره لمقوله الأعرابي: لا سمع ولا طاعة؛ لأن جلبابه كان أطول قليلا من الآخرين، حتى فسر لهم الأمر– وكذلك مقولته الشهيرة: أصابت المرأة وأخطأ عمر.

هـ– ذهب كثير من المؤرخين إلى أن الدولة الإسلامية كانت أول دولة مدنية في التاريخ تقوم على التشاور وعدم الانفراد بالقرار .

٣– الأمة مصدر السلطات:

أ– تشريعية: فالشعب وحده هو صاحب الحق في اختيار من يمثله في المجالس النيابية دون تدخل السلطة التنفيذية .

ب– قضائية: واستقلالها نوعان:

– استقلال مادي ، فلا سلطان للسلطة التنفيذية على القاضى من خلال الراتب ولقمة العيش، فالقضاة وهم صنف من العلماء يتقاضون رواتبهم من هيئة الوقف (في التصور الإسلامي) .

- استقلال فنى: لا يخضع تعيينهم للاستثناءات الناتجة عن ترغيب وترهيب السلطة التنفيذية كما أن القضاة وحدهم (من خلال مجلس القضاء الأعلى - أو ما في حكمه- المستقل استقلالا حقيقيا عن السلطة التنفيذية) هم وحدهم أصحاب الحق في الاختصاص بتوزيع الدوائر ونظر القضايا - وهم وحدهم أصحاب الحق في معالجة أمورهم من نوعية (النقل- الندب- الإعارة).

ج- التنفيذية: فالشعب والشعب وحده هو صاحب الحق الأول والأخير في اختيار من يحكمه عبر صناديق الانتخاب الحر .

* * *

الشورى أو الديموقراطية
كآلية من آليات التغيير في التصور الإسلامي للدولة المدنية

كثيرا ما يطرح هذا السؤال نفسه على المشتغلين بالشأن الإسلامي عامة وفقه التغيير خاصة وهو:

١- هل تتطابق الشورى مع الديموقراطية تماما؟

والجواب الصحيح يتضح من التعرف الكامل على كل منهما:

- **الديموقراطية** : كلمة يونانية من مقطعين:

الأول (ديموس) ويعني الشعب، **والثاني** (كريتس) ويعني الحكم، فيكون المعنى: حكم الشعب/ أو أن يحكم الشعب نفسه بنفسه/ أو حكم (رأي) الأغلبية وهذا هو المفهوم السائد.. ولكن عند الذين نحتوا المصطلح .. وآمنوا به.. وطبقوه .. وبشروا به فإنها تعني حكم (رأي) الأغلبية أيا كان ولو كان مخالفا لأحكام الدين وثوابته.

الشورى: كلمة عربية مشتقة من شور، أي جمع العسل، فكأن الذي يشاور الرجال يجني الشهد.

- هى تتطابق مع الديموقراطية في جزئية الأخذ برأي الأغلبية.. نعم .. لكن لإعمال الشورى ضوابط، فما هي؟

- ضوابط الشورى (متى نعمل الشورى؟).

- **تكون الشورى في ثلاث حالات:**

١- فيما لا نص فيه .

٢- في النص ظني الدلالة (فيما تعددت فيه الآراء).

٣- في المصالح المرسلة.

وبناء عليه :

- فلا مجال للشورى في أمور نزلت بها النصوص قطعية الدلالة كحرمة الخمر، الزنا، ووجوب صوم رمضان، موالاة المؤمنين وعدم موالاة الكافرين ، فرضية الحجاب، تطبيق أحكام الشريعة .. إلخ.

- إنما مجالها في أمور لا وجود لها في النصوص قطعية الدلالة.

- في أمور لها شواهد من النصوص لكنها ليست قطعية الدلالة فذهب كل عالم فيها مذهبا أو رأى رأيا وعند الأخذ بأحد هذه الآراء يطرح الأمر للشورى لانتقاء الأنسب.

- في المصالح المرسلة : وهى أمور تعلقت بها مصالح العباد ليس في الدين نصوص بفعلها أو تركها مثل قوانين المرور وسائر القوانين التى تنظم مصالح الناس، فهذه يتشاور بشأنها المعنيون بالقرار قبل إصداره على النحو الذي يحقق مصالح الناس وفق قواعد العدل والاستقامة.

- وهكذا فإن نفس هذه الضوابط الآنفة لو طبقت على الديمقراطية فليس للإسلام اعتراض عليها، بل تصبح مطابقة للشورى الإسلامية.

- ليست الشورى مفهوما سياسيا ضيقا يقتصر على مؤسسات الحكم والدوائر العليا للقرار في الدولة، بل هو سلوك إنساني حضاري ينبغى أن يمارس على كافة الدوائر والمستويات كالأسرة ، والعمل ، وكل مرافق الدولة ، البرلمان، الحكومة، مؤسسات المجتمع المدني، مؤسسة الرئاسة.. إلخ.

- آليات الشورى أو الطرق التي تتم بها:

- لا يعنينى في هذه الفكرة (آليات الشورى) أن أستعرض أماكن وآليات تنفيذها؛ لأن الشورى ما دامت مطبقة فليس ثمة مشكلة في التفاصيل.

لكن الآليات التي أعنيها هي أنواع الشورى:

١- **المشورة:** وهي أن يبادر الجندي أو الفرد بإبداء رأيه دون أن يطلب منه.

- وهذا لن يتم إلا في أجواء يسودها الحب العميق والاحترام المتبادل بين القيادة والجنود.

- فلو لم تكن هذه الأجواء متوفرة بين رسول الله ﷺ ومن حوله لما بادر رجل من الأغمار مثل الحباب بن المنذر بإبداء رأيه المخالف لرأي

القائد، الذي بدوره لم يكتف بحسن الاستماع بل سارع إلى تنفيذ الرأي حين تبين له حكمته وصوابه، والملاحظ أن الجندي سأل النبي ﷺ في البداية إن كان الله هو الذي أمره بالنزول في هذا الموضع، لكن النبي ﷺ نفى ذلك (يعنى نفى أن يكون الأمر من الله فلا مجال للشورى) وإذ انتفى الأمر الإلهى بادر الجندي بإبداء رأيه في جعل بئر ماء بدر خلف معسكر المسلمين وليس بينهم وبين المشركين (فنشرب ولا يشربون) بتعبير الحباب.

- ومن أمثلتها (المشورة): مشورة سلمان بحفر الخندق.

٢- **الاستشارة**: السين هنا يسمونها في اللغة العربية سين الطلب، فالاستشارة مصدر من استشار من أفعال الطلب- بمعنى أن يطلب المسئول من الجنود أو الأفراد أو الأعوان أن يقترحوا الحلول والآراء..

والاستشارة نوعان:

١- **مطلقة** : مثل أن يقول المسئول لإخوانه أو جنوده.. نحن بحاجة إلى آرائكم في هذه القضية أو هذه المشكلة فيدعوهم إلى إبداء الآراء.

- ومن أمثلتها قوله ﷺ قبل بدر: أشيروا علي أيها الناس.

٢- **مقيدة** : مثل أن يقول المسئول أو القائد لجنوده: لدينا مشكلة كذا، وقد اقترح فلان أو اقترحت أنا لها كذا، فما قولكم؟! أي أنه

يدعوهم إلى التصويت على رأي موجود بالفعل، فإما أن تقره الأغلبية وإما أن ترفضه فيبحثوا عن غيره .

– ومن أمثلتها استشارة النبي ﷺ السعدين (سعد بن معاذ وسعد بن عبادة) زعيمي الأوس والخزرج في اقتراح أبداه هو شخصيا كحل جزئي لأزمة الأحزاب..

– هذا الرأي هو مصالحة غطفان (أشرس القبائل التي قدمت لإبادة المسلمين) على الانصراف مقابل ثلث ثمار المدينة) ... فهنا..

– سأل السعدان ابتداء على عادة الأنصار في الفطنة والأدب مع الله ورسوله ﷺ .. سألا إن كان الأمر من الله فلا مجال للشورى.

– ولما أكد لهم النبي ﷺ أنه مجرد اقتراح اقترحه يستشيرهما فيه.. فهنا رفضا رفضا باتا بكل شجاعة أدبية.. فنزل معلم البشرية على رأيهما دون أدنى حساسية.

خاتمة في الشورى ودورها في البناء والتغيير:

١ – الشورى من دعائم الدولة الفاصلة التي ذكرها الله تعالى في آية من سورة كاملة اسمها الشورى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الشورى].

والذين استجابوا لربهم ... دعامة إيمانية تتمثل في الإيمان بمنهج الله.

وأقاموا الصلاة .. دعامة تربوية تتمثل في إقامة الصلاة والعبادات.

وأمرهم شورى بينهم .. دعامة سياسية تتمثل في الشورى.

ومما رزقناهم ينفقون .. دعامة اجتماعية تتمثل في التكافل.

٢- في سورة آل عمران آية (١٥٩) يقول الله تعالى فيها: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾.

- فهذه آية نزلت بعد أحد، يعني بعد هزيمة.

- أخذ فيها بالمشورة التى انتهت إلى رأي خلاف رأيه ﷺ . أقصد أن النبى ﷺ كان يرى التحصن في المدينة ومحاربتهم، ورأى الأكثرون خلاف ذلك فنزل على رأيهم.

- انتهت بالهزيمة.

- ومع ذلك ينزل الوحي مؤكدا لا تتركوا الشورى .

٣- الشورى هى الضمانة الأولى للعدل؛ لأن الحاكم حين يحكم بالعدل ...(دون مشورة) قد يظلم من حيث ظن أنه يعدل، كقوله تعالى على لسان فرعون رمز الاستبداد ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩﴾ [غافر].

- فهو يعتقد أنه يتخذ القرارات التي فيها صالح قومه؛ لأن العدل كثيرا ما يكون نسبيا من المنظور الفردي .

٤- فما دامت الشورى بهذا الشكل فهي تصحيح دائم لأوضاع داخل الجماعات، وتغيير نحو الأفضل، وارتقاء نحو الأعلى، سواء في دنيا الناس أو مجال إرضاء الله عز وجل.

٥- هل الشورى ملزمة للحاكم أو المسئول أم غير ملزمة؟

- يرى البعض أنها ليست ملزمة.

- لكننا بلا شك ننحاز إلى القول بأنها ملزمة على الأرجح .

- وليس هذا مجال البحث الفقهي حول هذا الأمر.

- ولكن الذي يختلط على كثير من الناس في رأي القائلين بأنها ليست ملزمة.. هو أن القائلين بهذا الرأي لم يقصدوا أن تكون غير ملزمة على الإطلاق ، في جميع المرات.

- لكنهم يقصدون على مستوى المرة الواحدة أو المرات المتباعدة.

- والذي لم يقصدوه مطلقا هو أن يشاور المسئول الناس كل مرة ثم لا يأخذ برأي أغلبهم، فالشورى لو كانت كذلك فما قيمتها كما تساءل الشيخ الغزالي ﷺ. بل إن الحاكم الذي يستبد برأيه على طول الخط يجب عزله، وإنما لو حدث في بعض المرات من باب أنه ربما أدرى وأعلى عينا من بعضهم.

- وقد أعجبتني بعض الاجتهادات المعاصرة للمودودي وغيره، خلاصتها أنه من الممكن أن تحدد اللوائح نسبة كثلثي المجلس مثلا

كحد أدنى للأغلبية بحيث يصعب أن يجتمع مثل هذا العدد أو النسبة دون أن يكونوا على صواب ولو كان مخالفا لرأي المسئول .

ضمانات العدل في النظام الإسلامي

١- عدالة القانون.. فهو لا يستمد من تشريعات البشر بل رب البشر.

٢- وضوح القانون.. وبعد مواده عن الالتباس والغموض.

٣- ضمير القاضى.. بشرط استقلال القضاء فنيا وماديا، واختيار القضاة على أسس عادلة.

٤- الشورى: في كل المجالات وخاصة الحكم والقضاء؛ لأن الشورى هى الضمانة الأولى للعدل كما أسلفنا، إذ ربما يحكم القاضي أو الحاكم بالظلم من حيث يظنه العدل.

٥- رقابة المجتمع.. المجتمع الذي يتنفس أجواء الحرية والشورى والاحترام العميق والحب المتبادل بين كل أبنائه، ويستشعر كل واحد فيه مسئوليته أمام الله «كلكم راع.. الحديث» .

* * *